كيف نقرأ علي الوردي؟

أ.د. سليم الوردي

أدرك ما قد تثيره صيغة السؤال من امتعاض لدى قراء الدكتور الوردي لا سيما المخضرمين منهم، الذين يقرؤون كتبه منذ ما يربو على نصف قرن، ويأتي أحدهم في آخر الزمان ليعلّمهم كيف يقرؤون له!

أتقبّل هذا الهامش من الامتعاض، ربّما تقفون على ما أرمي إليه. السؤال الذي تطرحه الورقة: حين قرأنا كتب علي الوردي، هل وفّقنا في قراءته، بمعنى هل وفّقنا على مراميه؟

لقد انشددنا إليه، أحببناه، تمتعنا به، تداولنا أفكاره ومقولاته، ولا نزال. ولكن كم تأثرنا بها، وكم انعكست في وعينا الجمعي .... كم تأثر بها مشروعنا السياسي السابق، بعناصره كافة: الحاكمين والمحكومين، الطغاة والمقهورين، الليبراليين والراديكاليين، الشموليين والديموقراطيين ...الخ. من السهل تفسير انصراف الحكام المستبدين عن أطروحات الوردي، بل وكراهية بعضهم له. ولكن ما يسترعي الانتباه أن رؤاه وأطروحاته التنويرية لم تجد لها موقعاً في البرامج السياسية لقوى المعارضة.

إن من يقرأ المشروع السياسي الفرنسي في أعقاب الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، يلاحظ التأثير الكبير للمنوّرين الفرنسيين فيه، أمثال: مونتيسيكيو وفولتير وروسو. فقد تأثّر الدستور الفرنسي بأفكار وأطروحات مونتيسيكيو، وخاصة مؤلفه "روح الشرائع"، وبنظرية العقد الاجتماعي لجان جاك روسو. رحل أولئك المنوّرون قبل الثورة، ولكن أفكارهم بقيت حاضرة وفاعلة. أما علي الوردي فكان حاضراً إبّان الانقلابات السياسية في العراق، بل وفي عنفوان عطائه الفكري، بيد أن أفكاره لم تجد أصداءً لها في المشهد السياسي. فكان بحلم الحاضر المغيّب.

استوطنت أفكار الوردي ذائقة القارئ العراقي، ولكنها لم تستوطن الوعي الجمعي للمجتمع العراقي. ولم تتحول إلى قوة مؤثرة في دفعه باتجاه المجتمع المدني الذي كان يبشّر به الوردي. وأكاد أشبّه شغفنا بكتبه على مستوى الذائقة، وانصرافنا عن برنامجه التنويري، بتلك العواطف المجانية التي لا تترجم إلى فعل، وخاصة الفعل السياسي. والحقيقة أنني لم أجد تجاوباً مع أفكار الوردي إلا مرة واحدة ومؤخراً، في عشية انتخابات كانون الثاني ٢٠٠٥، يقول الوردي في كتاب وعّاظ السلاطين الصادر عام ١٩٥٤،

"لو كنت من أرباب العمائم لأفتيت باعتبار التصويت واجباً دينياً، ولجعلت التقاعس عنه ذنباً لا يغتفر ... إنني أعرض هذا الرأي على رجال الدين، وأتحدّاهم أن يقبلوه أو يحققوه"(١).

خيّل لي وأنا أقرأ هذا النص في عشيّة الانتخابات، أن روح الدكتور الوردي ترفرف على المشهد السياسي، وهي سعيدة لقبول أرباب العمائم تحدّيه ولو بعد نصف قرن.

يذهب البعض إلى أن عدم انخراط الدكتور الوردي في النشاط السياسي حال دون تأثيره في المشروع السياسي العراقي، ودون تقديمه الحلول و المعالجات لمشاكل المجتمع العراقي. قرأت مؤخراً مقالة في صحيفة عراقية تصف الدكتور علي الوردي بصورة تقريرية:

"هذا هو منهج علي الوردي، فهو يطرق على جدار المشكلة، دون أن يغور فيها، من أجل المساهمة في حلها. ويتساءل الكاتب: هل تُحسب له حين يهرب من معركة هو أعرف بأسبابها ونتائجها الإيجابية في استعمال أدواته المعرفية في تقليل الألم والخسائر، أو في البناء؟ ..... يبدو أن هذا ديدن المثقفين عندما يحتدم الصراع بين أوساط الشعب عند التغيرات الكبرى، سواء في ثورة تموز، وبعدها"(٢). يقودنا هذا الكلام إلى السؤال: هل نأى علي الوردي بنفسه عن الشأن السياسي، ووقف على التل يتفرج؟

إن نظرة سريعة على كتبه في العهد الملكي، تكشف عن جرأة في نقد عيوب النظام الاجتماعي والسياسي، قد لا نجد لها نظيراً إلا في النشرات السرية التي كانت تصدرها الأحزاب السياسية المعارضة. هذا فضلاً عن الهجمات التي كان يشنّها على المؤسسات الفكرية التي احترفت الترويج للسلطات الظالمة، وأطلق على مروجيها تسمية "وعّاظ السلاطين" التي سارت مصطلحاً تتداوله الأوساط الثقافية والسياسية. فها هو يكتب في كتابه "أسطورة الأدب الرفيع":

"ومن عجيب أن نرى نظام الإقطاع يختفي في العالم الثالث قبل مئات السنين، بينما هو في ظهور وتزايد في العراق الحديث، إذ يكدح آلاف الفلاحين في الأرض كالعبيد، ليأتي بعد ذلك رجل واحد فيأخذ ما أنتجوه بعرق الجبين، ويذهب حيث ينعم بالملذات بدون حساب."

ثم يقول في تقييمه لإنفاق عوائد النفط:

"يخيل لي –ولعلني مخطئ- أن هذه الأموال التي أنعم الله بها على العراق في الآونة الأخيرة، تجري في أخاديد معينة، وهي في نهاية المطاف تصب في جيوب أفراد معدودين ... الخ."(٣)

ولكن يبدو أن للانخراط في الشأن السياسي شروط ومواصفات محددة في خيالنا السياسي: أن تشارك في التظاهرات ضد السلطات الجائرة، وتشج رأسك هراوات الشرطة، وأن تقبع مدة من الزمن في أقبية مديرية الأمن تحت رحمة جلاوزتها وجلاديها، إلى غير ذلك من صنوف المعاناة. حقاً إن الدكتور الوردي بموجب هذه الشروط و المواصفات، لم يكن مناضلاً، مقارعاً للظلم والرجعية!

إن رؤية الدكتور الوردي بعيدة الغور إلى التناقضات والانقسامات البنيوية للمجتمع العراقي، جعلته ينأى بنفسه عن الصراعات السياسية لأنها لم تكن بتقديره تتجه في المسارات الصحيحة المؤهلة لدفع عملية تطور المجتمع العراقي إلى أمام. ولم يكن أمامه إلا أن يحذّر القوى السياسية من مغبّة سيرها في الطريق الخطأ. وهذا ما فعله في إعلان اعتزاله الكتابة الذي صاغه على شكل كلمة وداع ألحقها بكتاب: "الأحلام بين العلم والعقيدة" الصادر سنة ١٩٥٩، ولم نسمع في حينه أية ردود فعل من القوى السياسية على ذلك البيان/ النداء، بما ينمّ أنها لم تأبه له. إن ذلك الإعلان يمثّل اهتماماً كبيراً بالشأن السياسي، وحين نستذكره اليوم بعد ٤٦ سنة نقف على ما كان يرمي إليه. ولا يزال الكثير من التحذيرات التي انطوى عليها ذلك البيان، نافذ المفعول حتى يومنا هذا (٤).

أولاً: توجه بالنصيحة للأحزاب والقوى السياسية بالكف عن التشاتم والتناحر وتكفير بعضها الآخر. وأن لا تغفل عما يختفي وراء مواقفها وسياساتها من دوافع اجتماعية. فالجهة السياسية التي تنسب الأعمال الفظيعة إلى خصومها قد تقوم هي بها، لو سنحت لها الفرصة، لأنها ترتوي من البيئة الاجتماعية نفسها التي يرتوي منها خصومها، ومصابة بالعلل عينها التي يعانيها الآخرون.

ثانياً: وحين يستعرض مآسي أحداث مدينتي الموصل وكركوك سنة ١٩٥٩ يؤكد أنها لم تكن مشكلة أحزاب سياسية، بمقدار ما هي مشكلة مجتمع مريض تعاقبت عليه الأدواء والمصائب. وإذ نهمل النظر إليها من هذه الناحية، إنما نساعد على تكرارها في بلدنا مرة بعد مرة. وإذ نعترف أن وراءها يداً أجنبية، يجب بأن نعترف أن اليد الأجنبية لا تؤثر في المجتمع ما لم تجد فيه مجالاً لتأثيرها. وأتساءل اليوم، ألا يمثّل هذا التشخيص نبوءة بالعنف الذي يشهده العراق اليوم. هذا العنف الذي نختزل أسبابه إلى إرهاب مستورد.

ثالثاً: أكّد الوردي ضرورة الفصل بين جماهير الشعب والغوغاء، لأن التداخل بينهما يجر إلى الوبال على الحركة السياسية، ويستدرجها إلى مطبّات مأساوية. ولم يعر الفكر السياسي والاجتماعي ظاهرة الغوغاء الاهتمام الذي تستحق، والدليل على ذلك الموقف التمويهي للإعلام السياسي العراقي من ظاهرة الفرهود التي تفجّرت بعد التاسع من نيسان ٢٠٠٣، والمنهج التسطيحي في تناولها.

رابعاً: لم تنتظم الصراعات الدموية بين القوى السياسية في أعقاب ثورة تموز ١٩٥٨ قواعد وآليات الصراع السياسي العقلاني. ولهذا لم يقد الاحتراب بين القوى السياسية إلى نتائج إيجابية، دفعت مسيرة المجتمع العراقي إلى أمام.

خامساً: تقاس كفاءة وفاعلية القائد السياسي بمقدار تأثيره في أتباعه و السيطرة على سلوكهم وتصرفاتهم في آن. ويعد فقدان السيطرة ضعفاً في القيادة. إن أخطر ما تواجهه الحركات السياسية الجماهيرية، هو حين تملي عفوية الجماهير شعاراتها على القيادات السياسية، فتتبناها بوصفها تعبّر عن نبض الشارع.

سادساً: يتصدى الدكتور الوردي للرأي القائل أن منهج التحري عن عيوب الشعب العراقي يضر به، ويفقده الثقة بنفسه، ويوهن قوته إزاء أعدائه. ويرى أن التكتم على العيوب والتستر عليها هو الذي يضعف الشعب. فالشعب الذي لا يدرك مكامن ضعفه لا يسهل عليه أن يكون قوياً إزاء أعدائه، والعدو الكامن في النفس ربما كان أشدّ خطراً من العدو المتربص في الخارج.

ربما يقول البعض أن الدكتور الوردي كان بارعاً في توجيه النقد للواقع الاجتماعي، ولكنه لم يؤشر الاتجاهات العقلانية لمسيرة الشعب العراقي. شأنه في ذلك شأن الطبيب الذي يشخّص المرض، ولا يصف الدواء.

حين نقرأ كتابه: "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" نجد في هذا القول مجافاة للحقيقة. فقد شخّص الوردي في هذا الكتاب التناقض البنيوي للمجتمع العراقي المتمثل في الصراع بين البداوة والحضارة، وتداعياته على الوعي والسلوك، فيما أسماه بالتناشز الاجتماعي وازدواجية الفرد العراقي. وقد وسم هذا الصراع بميسمه انقسامات المجتمع العراقي: العرقية والطائفية والقبلية. ونطلق على هذا الصراع بلغة هذه الأيام: الصراع بين قوى المجتمع المدني من جهة والقوى المتشبثة بمؤسسات ما قبل المجتمع المدني. ولم يقتصر الوردي على الكشف عن تناقضات المجتمع العراقي بل طرح في خاتمة كتابه رؤيته لمعالجة هذا الانقسام حيث يقول:

"رب سائل يسأل: إلى متى يبقى الشعب العراقي تسيطر عليه النزعة المتطرفة وتدفع به في مثل هذا الاتجاه العنيف؟ (ويجيب): إن التجارب القاسية التي مرّ بها الشعب العراقي علّمته دروساً بليغة، فإذا هو لم يتّعظ بها، أصيب بتجارب أقسى، وربما حلّ به من الكوارث والويلات ما يقسره على تغيير إطاره الفكري رغم أنفه ... ومن الوسائل المجدية في ذلك، هو أن نحاول تعويد الشعب العراقي على الحياة الديموقراطية، ونجعله يمارسها ممارسة فعلية، حيث نتيح له حرية إبداء الرأي، والتصويت، دون أن نسمح لفئة منه أن تفرض رأيها بالقوة على الفئات الأخرى.

ثم يقول:

"يقف العراق الآن على مفترق الطريق. وهذا هو أوان البدء بتحقيق النظام الديموقراطي. فلو فاتت هذه الفرصة من أيدينا لضاعت منّا أمداً طويلاً." ويختتم الكتاب بقوله: "ينبغي لأهل العراق أن يعتبروا بتجاربهم الماضية. وهذا هو أوان الاعتبار ... فهل من يسمع ...!!"(٥).

لربما انصرف رأي البعض إلى أن تحبيذ الوردي الأسلوب الديموقراطي في إحداث التغيير جاء رد فعل على الأحداث الدامية التي أعقبت انقلاب تموز ١٩٥٨، وبلغت ذروة دمويتها في انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣، إلا أن مراجعة مؤلفاته في الخمسينيات من القرن الماضي تؤكد تحبيذه التطور الديموقراطي السلمي. وأشار إلى ذلك في كتاب "وعّاظ السلاطين" الصادر سنة ١٩٥٤:

"إن نظام التصويت الذي تقوم عليه الديموقراطية الحديثة ليس هو في معناه الاجتماعي إلا ثورة مقنّعة. والانتخاب هو في الواقع ثورة هادئة، حيث يذهب الناس اليوم إلى صناديق الانتخاب، كما كان أسلافهم يذهبون إلى ساحات الثورة، فيخلعون حكّامهم ويستبدلون بهم حكّاماً آخرين ..... والثورة المسلّحة لا تحدث في أمة تلتزم طريق الديموقراطية الصحيحة"(٦).

قد لا يسترعي هذا الكلام انتباه القارئ لما ينطوي عليه من مفاهيم عامة ومألوفة. بيد أن الإشارة إليه في كتاب صدر سنة ١٩٥٤ له دلالات خاصة، لما تحتلّه هذه السنة من أهمية وخطورة في التاريخ السياسي للعراق الحديث. ففي هذه السنة أجهز العهد الملكي على التجربة البرلمانية في حل المجلس النيابي المنتخب بسبب فوز أربعة عشر ممثلاً لقوى المعارضة في الانتخابات. وعلى هذا النحو سوغ لقوى المعارضة سلوك سبيل التآمر والانقلاب العسكري(٧).

ولهذا ينطوي كلام الوردي على رسالة مزدوجة إلى السلطة الحاكمة والقوى السياسية المعارضة في آن. يحذّر الأولى من مغبّة انتهاك الديموقراطية، بما يمهّد للثورة المسلحة، وينبه القوى المعارضة إلى أن التحوّل الثوري لا يقتصر على استخدام العنف.

لنتذكّر أن الدكتور الوردي قال هذا الكلام قبل نصف قرن. ولكننا لم نستسغه لأنه لم يتناغم مع مفردات قاموسنا السياسي آنذاك. فلا إشارة فيه إلى التناقض بين الشعب العراقي والاستعمار، ولا الصراع الطبقي بين البرجوازية والطبقة العاملة، ولا التناقض بين "الوحدوية" و"الشعوبية" .... إلى غير ذلك من المصطلحات التي طرزت مشروعنا السياسي السابق.

ولذلك بدا الدكتور علي الوردي وكأنه يغرّد خارج أسراب ذلك المشروع. فوصف أنه يخالف لكي يُعرف، وأنه مولع بإثارة الزوبعة. إن أبلغ درس تركه لنا الوردي: إن من الأجدر برجل الفكر أن يثير زوبعة من أن يكون إمّعة.

مقاربات ختامية

إذ لم تلتزم الورقة بالهيكلية الأكاديمية المألوفة، نجد أن من غير المسوّغ اختتامها باستنتاجات. لهذا سنتكئ على بعض المقاربات الختامية:

١- استغرق قراءتنا كتب الوردي سابقاً، التعرّف على حقل معرفي جديد. وحرص الوردي على إثارة فضولنا المعرفي بعلم الاجتماع ووظائفه، آخذاً بعين الاعتبار النسيج الثقافي لعموم القرّاء العراقيين (وليس النخبة). هذا النسيج الذي حكم حبكته انقطاع المجتمع العراقي عن تأريخه الحضاري قروناً طويلة.

٢- لم يعتمد الوردي الطرق الأكاديمية في الدراسات السوسيولوجية الحديثة. ولو انه فعل لحكم على نتاجاته بالانغلاق ضمن دائرة نخبوية ضيقة من القرّاء. بينما كان قد صمم لنفسه رسالة تنويرية، تتوخى الوصول إلى مدارك قاعدة واسعة من الجمهور.

٣- أدرك الوردي أن أطروحاته لا تتمكن من شق طريقها في فضاء معرفي يعج بالمسلّمات والمحرّمات والثوابت المألوفة. فتعمد أسلوب الصدمة في محاولة منه تحرير الوعي الاجتماعي من أسر تلك المسلّمات. وكلّفه ذلك تحمّل سهام النقد الحاد من كل صوب وحدب.

٤- لكي تكون القراءة الجديدة للوردي فاعلة، ينبغي أن تقترن بقراءة جديدة للمشروع السياسي العراقي، ومسلسل الإخفاقات التي سجلها، ما قاد العراق إلى ما هو عليه الآن. ويمكن للقارئ الفطن أن يلتقط من أطروحات الوردي تشخيصه البرامج السياسية المغتربة عن واقع المجتمع العراقي التي تبنّاها ذلك المشروع. شخّص أن السبيل الوحيد لمعالجة تناقضات مشاكل المجتمع العراقي هو الديموقراطية. بيد أن المشروع السياسي العراقي لم يضع الديموقراطية أولوية لكفاحه، ولم يعبئ الجماهير لتحقيقها. إن إغلاق العين عن هذه الحقيقة لا يساعد على فهم أطروحات الوردي ولا إنصافها.

٥- إن عمق استيعابنا لعلم الاجتماع عموماً، وأطروحات الوردي خصوصاً يرتبط بمدى تشعبنا بمفاهيم وقواعد المجتمع المدني وما يفترضه من متطلّبات. فعلم الاجتماع الحديث وليد المجتمع المدني، ولا يمكن أن يترعرع إلا في حاضنته. وستتعمق قراءتنا لأطروحات الوردي مع كل خطوة حقيقية نخطوها باتجاه المجتمع المدني.

الهوامش:

١- د. علي الوردي، "وعّاظ السلاطين"، الطبعة الثانية، سنة ١٩٩٥ دار كوفان لندن، صفحة ١٠٨،

٢- صلاح وهبي، "يوم أعلن الدكتور الوردي اعتزاله الكتابة"، جريدة "النهضة"، بغداد، العدد ٣٦٤ في ٢٠٠٥/٣/٢٠،

٣- د. علي الوردي، "أسطورة الأدب الرفيع"، الطبعة الثانية، سنة ١٩٩٤، دار كوفان لندن، صفحة ٢٩٩ و ٣٠٠،

٤- د. علي الوردي، "الأحلام بين العلم والعقيدة"، الطبعة الأولى، بغداد، مطبعة الرابطة، سنة ١٩٥٩، كلمة وداع الصفحات ٣٦٤-٣٩٠،

٥- د. علي الوردي، "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي"، طبعة ثانية (دار النشر وسنة الإصدار بلا) الصفحات ٣٨١-٣٨٣ (خاتمة الكتاب).

٦- د. علي الوردي، "وعّاظ السلاطين" (مصدر سابق) صفحة ٢٦٦،

٧- د. سليم الوردي، "مقتربات إلى المشروع السياسي العراقي"، الطبعة الأولى، بغداد سنة ٢٠٠٥ الصفحة ٧٥،

مجلة علوم انسانية www.uluminsania.net السنة الثالثة: العدد ٢٧: مارس (آذار) ٢٠٠٦
rd Year: Issue 27, Mar:٣ -

اسرة تحرير ملحق عراقيون
علي حسين
مازن لطيف
مصطفى محمد

ملحق ثقافي يصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة
العدد (1235) الخميس (29) أيار 2008
No. (1235) Thu. (29) May 2008

خواطر مع الدكتور الوردي

محمد علي محيي الدين

تربطني بالمرحوم الدكتور علي الوردي، علاقة امتدت لسنين، حيث كنت من المواظبين على حضور منتدى الأربعاء الأسبوعي الذي يقيمه العلامة الدكتور عبد الرزاق محيي الدين، رئيس المجمع العلمي العراقي الأسبق، وكان الدكتور الوردي من رواده ، رغم ما بينهم من الاختلاف الفكري في الكثير من المجالات، والمساجلات العنيفة حول الأدب العربي التي دارت على صفحات الجرائد العراقية في الخمسينيات، ونشرها المرحوم الوردي في كتابه أسطورة الأدب الرفيع، فقد كانت بينهم من الآصرة الأدبية والزمالة الجامعية، ما جعلهم أكثر(من السمن على العسل)رغم ألاختلاف في الرؤى والتوجهات، "فخلاف الرأي لا يفسد في الود قضية" فقد كان محيي الدين متأنقا في كتاباته وصوره القلمية، متبعا أساليب الكتاب المترسلين أمثال التوحيدي والجاحظ، متأثرا بما كتبه الزيات وطه حسين، في عنايتهما بالمحسنات اللفظية، وما عليه الأقدمون من عناية بالتركيب البليغ للجملة العربية، وفق هندسة تعنى بالجملة القصير المتناغمة، والجرس اللفظي، والمعنى الموحي، باتباع الأسس البلاغية لهندسة الجملة العربية، على عكس الوردي الذي تميز بالأسلوب السهل الممتنع القريب من مدارك القراء، ما جعل له شعبية عالية جعلت كتبه تتصدر المطبوع العراقي سعة وانتشارا ومبيعات، ما جعل خصومه ينعتونه بالمتاجرة لما حقق من شعبية وانتشار لم يحض به كاتب آخر في العراق، وما زالت كتبه تلقى من الانتشار ما يجعله في المقدمة من الكتاب الأكثر شهرة في الأوساط الشعبية، وفي استطلاعات للرأي أجريت مؤخرا، ظهر أن كتبه ما زالت تخطى بالصدارة ذاتها التي كانت عليها سابقا، رغم اختلاف التوجهات العامة للقراء، وانصرافهم لقراءة الكتب ذات التوجهات التي تواكب المرحلة الراهنة التي يمر بها العراق.

وقد توطدت العلاقة أكثر في أوائل التسعينيات، عندما قام اللصوص الأشاوس بسرقة سيارته، ما جعل الكثيرين من أصدقائه ومعارفه وطلابه ملزمين بإيصاله إلى المجالس البغدادية التي يرتادها، وكثيرا ما أوصلته إلى منزله في ليالي الأربعاء بعد انتهاء المجلس إذا لم تتوفر واسطة أخرى، وكنت أستغل انفرادي به وأوجه له أسئلة لا يمكن البوح بها أمام الآخرين، وقد سألته ذات يوم، عن كتابه القيم لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، وهل قام بدراسة الفترة الحالية، وهل أخذت شيئا من اهتمامه أم تجاوزها، لما في الكتابة عنها من محاذير، فكان يتهرب من الإجابة إلى أن أحرجته ذات يوم، فأشار بيده كمن يتهيأ للمنازلة وقال ما معناه، لقد كتبت في لمحاتي كل ما أريد قوله حتى هذا اليوم، ولكنها سترى النور بعد وفاتي، إذا تغيرت الظروف والأحوال، ولم أهمل شيئا من الظواهر الاجتماعية الطارئة والراسخة في المجتمع وخصوصا في ظل التحولات الجديدة، وسترى فيها ما يسرك، ويكون إجابة لقصيدتك عن سرقة سيارتي، أردفها بضحكة قوية تجلى فيها شبابه الأدبي رغم تقدمه في السن.

وحكاية القصيدة تدور حول سيارته الخاصة التي سرقت منه عام ١٩٩٢، وعندما راجع الجهات المسؤولة جوبه طلبه بالإهمال والمماطلة والتسويف والروتين القاتل، فكان حادث السرقة محل تندر أخوانه وأصدقائه.

والآن بعد أن أصبح في ذمة التاريخ، ورحل عن هذا العالم، بعد أن تعب وأتعب الناس في مساجلات ومعارك كانت مثار اهتمام الشارع العربي، أليس حريا بالحكومة العراقية، ووزارة الثقافة بالذات، السعي لنشر آثاره بطبعات زهيدة الثمن لتكون بمتناول الجيل الجديد، وأن تشكل لجنة من ذوي الاختصاص للعناية بتحقيق آثاره المخطوطة التي تحتفظ بها أسرته، وجمع ما تناثر من مقالاته، ومعاركه الفكرية الكثيرة، ففيها الكثير من الإجابات عن تساؤلات مشروعة لمن يهمهم مصير العراق ووحدته، وإعادة بنائه على أسس متينة، والنهوض به من كبوته، ولعل القارئ المنصف سيجد الكثير من التحليلات التي أثبتت الأيام صحتها، رغم أنها صدمت وتصدم الكثيرين لما فيها من واقعية يحاول الآخرون التستر عليها، فقد نبه قبل أكثر من نصف قرن، إلى ترسخ البداوة في العقل الباطن للإنسان، رغم التظاهر بممارسة ما أفرزته الحضارة الحديثة، أو الالتزام بتعاليم الدين، وبين إن الكثير من العادات والتقاليد والممارسات الاجتماعية الجاهلية، ما زالت تطفوا على تفكير الفرد العراقي، ولم تستطع الأفكار الجديدة والحضارة الحديثة إزالتها، وقد ظهرت جلية واضحة بعد الزلزال الكبير، والانفلات الأمني، عندما عاد الأعاريب لعاداتهم القديمة في الغزو والمكسب والغنائم، وهيمنت شريعة الغاب على مفاصل المجتمع، وأصبح للقوي القادر التحكم بمصائر الآخرين، رغم خطل آرائه وتخلفها وعدم مواكبتها العصر، وظهر جيل من المتعصبين يعبرون عما في داخلهم من الرواسب الجاهلية المتحجرة، ويمارسون ما مارسه الأجداد العظام قبل آلاف السنين، غير مدركين طبيعة العصر، وما وصل إليه الإنسان من تقدم في مجالات الحياة المختلفة.

فما يحاول تمريره البعض من أفكار غريبة على العصر، والعودة إلى عقلية القبيلة وأحكام القرون السالفة تحت واجهات عقائدية بعيدة عن روح الأديان السماوية الداعية إلى المحبة والتسامح والمساواة، والهادفة لنشر الفضيلة والكمال، يؤيد ما ذهب إليه المرحوم الوردي في كتبه العديدة ، بأن الكثير من النظريات والمبادئ الحديثة لم تأخذ طريقها إلى النفوس لتغيير ما فيها، فتظهر بين وقت وآخر آثار تلك النوازع في الفرد والمجتمع، وما نعانيه اليوم من انكفاء في المفاهيم والقيم يدعونا لدراسة كتبه مجددا، في محاولة لتشخيص الظواهر المدانة واستئصالها كما يستأصل المرض الخبيث.

ورغم ما جوبهت به كتبه من ردود فعل عنيفة، خرج فيها البعض عن جادة الصواب، فكان في ردودهم من التهجم ما يخرجه عن طبيعة البحث العلمي والرصانة الفكرية، إلا إن مخالفيه لو شاهدوا ما يجري هذه الأيام، لأحنوا رؤوسهم خجلا لخطل آرائهم وعقمها، اتجاه آرائه التي شخصت علل المجتمع وتناقضاته بروح علمية محضة، كان فيها صريحا وجريئا كعادته، ولولا الأراجيف والطعون التي واجهه بها منتقدوه لتجاوزت انطلاقته الحدود، بما يضع من تصورات سليمة لكثير مما سكت عنه، فقد سمعت منه شخصيا بعض الآراء التي لو أتيح له الإفصاح عنها لذبح من خلاف، وهاجمه الرعاع بالعصي والسكاكين، وهي في معظمها واقعية إلا أنها تدخل في الصميم، وتسفه الكثير من المسلمات التي تصافق عليها المجتمع، في تجاوز لحدود المقدسات ، بما يضعها موضع المحاكمة، في التفنيد والتشكيك والنقد.

ولو عاش الوردي هذه الأيام، وأفسح له في المجال بما تهيأ من وسائل حديثة للنشر لا تحدها رقابة، ولا يصدها منع، لكان في أفكاره ما يؤدي إلى تفجير قنبلة ، تثير الدنيا ولا تقعدها إلى يوم يبعثون، واحتاج العالم في تأمين حمايته، لبناء صومعة على سطح القمر أو المريخ، خشية على حياته من الناقمين والمخالفين، لما في أفكاره من التطرف المنهجي الذي يناقض الكثير من المسلمات التي تصالح عليها الآخرون، واعتمدوها بديهيات لا تقبل النقض والتأويل.

علي الوردي